«أعرفك جيداً يا «مريم». إن لك لَيَدَيْ بنات الملوك الناعمتيْن وقلباً هشّاً من قلوب اللواتي مَحَضَهُنَّ أَبٌ حبّاً كثيراً. لقد أحاطت بك الدُّمى من كل صوب وأنت طفلة، وغطّتك الحُليّ إذ أدركتِ وزُففت إلى الرجل الذي اخترتِه. ثم جئتِ تعيشين على هذه الأرض السخيّة وقد أخذ زوجك بيدك. وكما في اليوم الأول فإنكما تسيران في البساتين التي تملكانها، وهناك في كل موسم آلاف الثمار برسم القِطاف. وها هو ذا بطنك يحمل الطفل. يا للبُنيّة المسكينة إنك لتعيشين في سعادة غامرة منذ زمن طويل بحيث يكفي أن ترتابي في عينَيْ رَجُلِك بأدنى غيابٍ، بابتعادٍ أكثر ما يكون عابراً، لكي تميد بك الأرض وتُظْلِم الدنيا من حولك».

وتعيد «أوتاكيم» بإبهاميها تزجيج الحاجبيْن اللزجيْن فوق جبين التي ستبقى في نظرها صبيّة صغيرة. وتفتح «مريم» عينيها بعد أن كانت قد بدأت تهوِّم في النوم وتتوسّل إلى الخادم فتأخذ هذه بسرد الأخبار.

ـ إنهما يتحدّثان، لا يتوقفان عن الحديث. أو هو الزائر بالحري الذي يتكلّم وسيّدنا يتجنّب أن يقاطعه.

لو كان رأس «مريم» أقلّ ضبابيّة لاكتشفت في صوت «أوتاكيم» ارتجافة الكذب. فلقد سمعت هذه بالفعل أصوات محادثة، غير أن الرجليْن لم يكونا على الشرفة، وقد فرش «پاتيغ» حصيراً في غرفة الضيوف لقضاء الليل فيها.

ولقد قلقت «أوتاكيم» بدورها حتى جافاها النوم، ولكنها تتظاهر به وهي خُدعة قديمة من خُدَع المراضع كانت تفعل فعلها في «مريم» الطفلة ولا تزال ناجعة. والحقّ أن سيّدتها لم تتجاوز الرابعة عشرة على الرغم من كونها زوجة وأُمّاً عمّا قريب. وسرعان ما غدا تنفُّسها أبطأ وأشدّ انتظاماً، حتى وإن بدر فُواقٌ من حين إلى حين مذكّراً بأن الصبيّة قد نامت من غير أن يُطيِّب خاطرها.

كان المصباح المعلّق على الجدار يستنفد زيته عندما اعتدلت «مريم» دفعة واحدة.